القصص المدرسية

(٤)

بقلم

سعيد العريان　　امين دويدار　　محمود زهران

مدمس اكسفورد

الطبعة الثانية عشرة

دار المعارف

الناشر : دار المعارف - ١١١٩ كورنيش النيل - القاهرة ج.م.ع.

بسم الله الرحمن الرحيم

كلمتنا إلى الآباء والمدرسين

ليس من شك فى أن الطفل بطبعه واوع بالقصة ؛ وأن الأدب العربى على سعته وغناه ، يكاد يخلو من القصة السهلة ، التى يستطيع الطفل أن يقرأها فى رغبة وشوق . فبينما نرى الآداب الأجنبية حافلة بكل ما يجذب الطفل ويحبب إليه القراءة والمطالعة ، نجد الأدب العربى يكاد يخلو جملة من « أدب الطفل » ؛ وبينما الطفل الأجنبى يتلقى أكثر معلوماته عن الحياة فى أسلوب « القصة » الجذاب ، نرى الطفل العربى يتلقى أكثر مسائل العلم فى أسلوب جاف ، وطريقة لا تلائم طبيعته المرحة .

ولا شك أن المدرسين أكثر إحساساً بهذه الحقيقة ، وأشد شعوراً بحاجة الطفل العربى إلى أدب سهل يشوقه ويجذبه ، ويوافق نزعته وميله .

هذا الشعور هو الذى دفعنا إلى أن نحاول سد هذا الفراغ ، بوضع قصص سهلة تلائم طبع الطفل وتتمشى مع روحه ، فبدأنا بوضع هذه « القصص المدرسية » ، ورمينا فيها إلى الأغراض الآتية :

١ — أن تكون وسيلة إلى تعليم الإنشاء ؛ فجعلنا أسلوبها سائغاً مفهوماً ، لا يبعد من الفصحى ، ولا يتدلى إلى لغو العامية ؛ وحاولنا أن نقرب بين العامية التى يتكلمها التلميذ ، والعربية التى يتعلمها ، فأبقينا على كل كلمة عامية لها فى العربية أصل يؤيدها ، غير وانين فى التنقيب والبحث عن كل كلمة فى مظانها . ووضعنا تحت عين التلميذ نماذج من جيد الإنشاء ، مبثوثة فى تضاعيف القصة ؛ مفرقة فى حواشى الكلام ، ليسهل عليه تناولها من غير أن يشعر بسأم المتعلم ، فلا يكاد يأتى على القصة حتى يكون قد اجتمع له من فصيح الكلام قدر يعينه على تجويد المحادثة والإنشاء .

٢ — وأن تكون وسيلة إلى تهذيب الطفل ، لذلك عنينا بأن يكون موضوع قصصنا غير بعيد من جو التلميذ ، بحيث يسهل عليه تصوره ومتابعته بخياله ، وبحيث يتهيأ له أن يعرف

الطريق إلى الرجولة الفاضلة من غير أن يلتوى عليه السبيل .

٣ — وأن تكون وسيلة إلى تسليته ، ولهذا حاولنا ما استطعنا ، أن تكون جذابة فى كل شىء ؛ فجعلناها صغيرة الحجم يستطيع الطفل أن يضعها فى جيبه ليقرأ فيها متى وأنى شاء ، مشكولة ليمكن التلاميذ قراءتها بغير معاناة ، مصورة زاهية اللون لتدعو الطفل بمنظرها الجميل ، كما جعلناها رخيصة الثمن ليكون فى طاقة كل تلميذ أن يحصل عليها ، طيبين نفساً بما نبذل من وقت ومال وراحة فى سبيل الغرض الذى ننشده ، فإن أفلحنا فى الوصول إليه فذاك حسبنا ، وإلا فإننا ماضون فى طريقنا ، دائبون على تكميل كل نقص نراه أو يلفتنا إليه الناصحون .

سعيد ، أمين ، زهران

مُدمَّس أكسفورد

كانَ «سَعْدٌ» و «لُطْفى» صديقَيْنِ حَمِيمَيْنِ. وَكَانَ أَبو سَعْدٍ تاجِرا كَبيرًا ، يَجْلِبُ الْمَنْسُوجاتِ الْحريريَّةَ من الشَّامِ وَفَرنْسَا ، فيَرْبَحُ من تِجارَتِه أَرْبَاحاً كَثيرة. أَمَّا لُطفى فكانَ أَبوهُ موَظَّفًا فى الْحُكُومَة ، يَقْبِضُ مُرَتَّبَه كلَّ شَهْرٍ ، فَيَصْرفُهُ فى حاجَاتِهِ وحاجَاتِ أَوْلَادِه ، ولَا يُوَفِّرُ شَيْئاً ؛ لأَنَّ إِيرادَهُ عَلَى قَدْرِ مَصرُوفِه .

وَدَخَلَ لُطفى وسَعْدٌ الْمَدْرَسَةَ الإِبْتدَائيَّة ، فى فِرْقَة وَاحِدة ، فكانا رَفِيقَيْنِ مُتَلازِمَيْن ؛

لأَنَّهُمَا يَسْكُنَانِ فى حَىٍّ واحِد ، وفى بَيْتَيْنِ مُتَجَاوِرَيْنِ ، يَذْهَبَانِ مَعاً إلى الْمَدْرَسَةِ فى الصَّبَاح ، وَيَجْلِسَانِ إلى مَائِدَةٍ واحِدةٍ فى الظُّهْر ؛ فإذا دقَّ الجرسُ فى آخِرِ الْيَوْمِ الْمَدْرَسِىّ ، حَمَلا كُتُبَهمَا ورَوَّحَا مَعاً ؛ فَيَلْعَبَانِ قَليلا ، ثم يُؤَدِّيَانِ واجباتِهمَا الْمَدْرَسِيَّة ، وَيَنْصَرِفُ كلٌّ مِنْهما إلى مَنْزِلِهِ لِيَنَام . واسْتَمَرَّا على ذلك ، حتى حَصَلا عَلَى الشَّهادَةِ الابْتِدَائِيَّة ، والْتَحَقا بِالْمَدْرَسَةِ الثَّانَوِيَّة .

وَلما كانا فى السَّنَةِ الثانِية ، نُقِلَ أَبو لُطفى إلى بَلد آخرَ ؛ فحَزِنَ الصَّدِيقَانِ لِهَذَا الْفِرَاق ، وَاتَّفَقا على أَنْ يَتَصَوَّرَا مَعاً ؛ لِتَكُونَ

هذهِ الصُّورَةُ تَذْكارًا لِكُلٍّ مِنهمَا عِنْدَ صاحِبِه .
ولكنَّهما ـ عَلَى مَرِّ الأَيَّام ـ نَسِى كلٌّ مِنْهمَا رَفِيقَه ، واشْتَغَلَ بِشئُونِ نَفْسِه .

وَجَدَّ سَعْدٌ فى دُروسِه ، حتى نالَ الشَّهادَةَ الثَّانوِية ، ودَخَلَ « جامِعَةَ الْقاهِرَة » ؛ وَما زالَ يَجِد ويَجْتَهِد ، حتى نالَ الشَّهادَةَ الْعُلْيَا ، وكانَ أَوَّلَ النّاجِحِين ؛ فَفَرِحَ لهُ الْمُعَلِّمون ، وَفَرِحَ بِهِ أَهْلُهُ وَأَصْدِقاؤُهُ ورَأَتْ « وزارةُ التَّرْبِيَة والتَّعْليم » أَن تكافِئَهُ على جدِّهِ وَتَقدُّمِه ؛ فأَرْسَلَتْهُ فى بَعْثة على نَفَقَتِهَا ، إلى بلادِ الْإِنْجِليز ، لِيُتَمِّمَ عُلومَهُ فى « جامِعةِ أُكسفُورد » .

وكان سَعْدٌ مُبْتَهِجاً فَرْحان ؛ لأَنَّهُ سَيُشَاهِدُ

« أورُبَّةَ » التى أَدْهَشَتِ الْعَالَمَ كلَّهُ بمخْتَرَعَاتِها الْعَجِيبَة ، فَسَهَّلَت على النَّاس الصِّعاب ، وخفَّفَتْ عَنْهُمُ الْمتاعِب ، وَقَرَّبَت البِلَاد ، وَرَبَطَتْ بَيْنَ الْأُمم .

وَأَحَسَّ سَعْدٌ أَنَّهُ أَصْبَحَ رَجُلًا عَظِيمًا ، يَعْرِفُه النَّاسُ ويَحترِمُونه ، ويَعْرِفُه رَئيسُ الْحُكومَة ، وَتَتَحدَّثُ عَنْهُ الْجَرائِد ، وتَنْشُرُ صُورتَهُ الْمَجَلَّاتُ والصُّحُف .

وَلَمَّا جَاءَ مِيعادُ السَّفَر ، ذَهَبَ سَعْدٌ إلى وزَارةِ التَّرْبِيَةِ والتَّعْليم ، فاسْتَقْبَلَهُ الْوزِير بِلُطْفٍ وبَشَاشَة ، وسَلَّمَ عَلَيْهِ يدًا بِيَدٍ وأَثْنَى على اجْتهادِهِ وتَقَدُّمه ، وشَجَّعَهُ بكلمات حُلْوَة ؛

وأَوصَاهُ أَن يَكُونَ بَيْن الْأَجانِبِ مِثالًا حَسَناً ، فى آدابِهِ وَوَطَنيَّتِه ؛ وأَن يُبَرْهِنَ بأَخلاقِهِ ورُجُولَتِه ؛ على أَنَّ المِصْرِىَّ رَجُلٌ مُهَذَّب ، وأَنَّ « مِصْرَ » أُمُّ الحضارةِ والمَدَنِيَّة .

فتَقَبَّلَ سَعْدٌ تَحِيَّةَ الْوَزِير شاكِرًا ؛ وَوَعَدَهُ أَنْ يعْملَ بِنَصَائحِهِ الْغَالِية ؛ ثُمَّ انصَرَفَ إِلى دَارِهِ ، فَوَدَّعَ أَهْلَهُ وأَصْحَابَه وَرَكِبَ الْباخِرةَ مِنْ « مِيناءِ الإِسْكَنْدَرِيَّة » . وَحِينَ صَفَرَتِ البَاخِرَةُ وآذَنَتْ بِالرَّحِيل ، وقَفَ عَلَى الرَّصِيفِ أَهْلُهُ وَأَقارِبُه ، يُشَيِّعُونَهُ ويُوَدِّعُونَه ، ويُشَوِّرُونَ إِلَيْهِ بِمَنَادِيلِهِمْ ، وَهُوَ يُشِيرُ إِلَيْهِم ، وَالدُّمُوعُ تَتَرَقْرَقُ فى عَيْنَيْه ، حتى اخْتَفَتْ أَشْبَاحُهُمْ عَنْه.

وَسَارَتْ بِهِ البَاخِرَةُ عِدَّةَ أَيَّامٍ فى عُرْضِ الْبَحْرِ لا يرَى إِلَّا الْمَاءَ وَالسَّمَاءَ . وكانَ يعْجِبُهُ مَنْظَرُ الْبَحْرِ وجمَالُه ، فَيَجْلِسُ على سَطْحِ الْبَاخِرَةِ كُلَّ يَوْمٍ سَاعاتٍ طَوِيلَة ، يتمَتَّعُ بالنَّسِيمِ الْبَلِيل ويُشَاهِدُ الأَمواجَ العَالِيَة كالْجِبال تُلاطِمُ الْبَاخِرَةَ من جانِبَيْها فَتَهْتَزُّ وتَتَمَايَل ، كأَنَّها أُرْجُوحَة فى الْهَوَاءِ .

وكان سَعْدٌ يَنْظُرُ عن يَمِينِهِ وَشِمَالِه ، فَيَرَى الْبَحْرَ فى كُلِّ ناحِية ، لا يَحُدُّهُ شاطئٌ ، وَلا يَظْهَرُ حَوْلَهُ بَرّ ، كأَنَّه شَىْءٌ لا نِهايَةَ لَهُ ؛ وَينْظُرُ إِلى فَوْقَ ، فَيَرَى السَّماءَ زَرْقَاءَ صافِية ، كأَنَّها بَحْرٌ فَوْقَ الْبَحْرِ ؛ ثُم يَنْظُرُ إِلى تَحْت ،

فيُشَاهِدُ خَطًّا مِنَ الزبَدِ الْأَبْيَض ، يَتبَع الْبَاخِرَةَ من وَرائها كأَنَّهُ ذَيْلٌ طَوِيل . فإذا جاءَ الْمَسَاءُ أَوَى إلى حُجْرَتِه ، فَصَلَّى العِشَاءَ ثم نَامَ مَسْرُورًا .

* * *

ولما وَصَلَ سعدٌ إلى مَدينَةِ «أُكْسفُورْد» اسْتَقْبَلَهُ كَثِيرٌ مِنَ الطَّلَبةِ الْمِصْرِيِّين ، الَّذِينَ يَتَعَلَّمُونَ هُنَاكَ فى الْجَامِعَة ، وَرحَّبُوا بِهِ وأَحْسَنُوا اسْتِقْباله ، واسْتأْجَروا لهُ غُرْفَةً مَفْرُوشةً ، فى مَنْزِلٍ قَرِيبٍ منَ الْجَامِعة . ولكنَّه على الرَّغْمِ مِنْ ذَلك ، قَضَى أَيَّامَه الأُولَى فى بِلادِ الإِنْجِليز ،

وهُوَ شاعرٌ بالْغُرْبَةِ والْوَحْشَة ؛ وكانَت الْمَنَاظِرُ والْعَادَاتُ الَّتى يَرَاهَا غَريبةً عَنْه .

فقد أَحَسَّ فى الْجَوِّ بُرُودَةً شدِيدةً ، لم يُحسَّها فى مِصْر ؛ ورأَى السماءَ سَوداءَ قاتمة ، لا تَكَادُ تصْفُو من السحاب : ورأَى الضّبابَ يَتكاثَف فى الصَّباحِ والليل ، حتى لا يُبْصِر الإنسانُ مما حَوْله شيئاً . ووَجَدَ الناسَ جَميعاً لا يَتكلَّمونَ إلا اللُّغَةَ الإنْجليزية ، فكانَ لا ينْطِقُ بِالْعَرَبِيةِ إلا حِين يصلِّى .

واسْتَعْجبَ سعدٌ حينَ رَأَى المنازِلَ متباعِدا بَعْضُها عن بَعْض ، مُتَقَارِبَةَ الأَشكالِ والأَلوان ،

وحين رأى أن الشوارعَ خالية من القَهَوات ، وَأَنَّ قُطر التَّرامِ تَسِيرُ فى سَرَادِيبَ تَحْت الأَرض ، يَهْبِط إليْها الناسُ ويَصْعدون على سَلالِمَ مُتحركة بالْكَهْرَبَاءِ ، وحِينَ شَاهَدَ بعضَ النِّساءِ يَلْبَسْن ملابِسَ الشُّرْطَة ، وَيؤَدِّينَ عَمَلَ الشُّرط ، مِنْ مُحَافظَةٍ على النِّظامِ والآداب .

وعافتْ نَفْسهُ طَعَامَ الإنْجليز ، لأَنَّ أَكْثَرَهُ مَسْلُوق ، لَيْسَ فيهِ إلا قليلٌ منَ الْمِلْحِ والزُّبْد. واشْتَهَى طَعَام بِلادِهِ ، وَهَفَتْ نَفْسُهُ إلى الطَّعْمِيَّة ، والْفُولِ الْمُدَمَّس ، وَالْمُلُوخِيَّة ، وغَيرِها من طَعامِ بِلادِنا ، الَّذِى يَفْتَحُ النَّفْس ؛ وَلكنَّهُ لم يَجِدْ شيئاً من هذا هُناك .

* * *

وفى ذاتِ يَوْم – بَيْنَما هوَ يَتَمشَّى فى أَحَدِ الشَّوارع – استَوقَفَهُ مطْعَمٌ مَكْتُوبٌ على بابه بالْعَرَبِية : « مُدَمَّس أُكسفُورْد » . وكانَ من يَوْمِ حضُورِه إلى هذهِ البِلاد ، لم يجِدْ دُكَّاناً واحدًا يُكْتَبُ اسْمُه بالْعرَبِية ، فاستَعْجَبَ حينَ رأَى هذِهِ الْكلِمةَ الغَرِيبَة ، ولَمْ يَكَدْ يُصَدِّقُ عَيْنيْه .

ثم تَقَدَّم خُطُوَات ، حتى وَقَفَ بِبابِ الْمَطْعَم ، فرأَى قِدرًا صَفراءَ من قدورِ الْفُول ، على حامِلِها النُّحَاسِىّ ، فَوْقَ مَوقِدِ الْبترُول ، قَدْ وقَفَ إِلَيْها طَبّاخٌ نَظِيف ، يَلبَسُ فَوْقَ

ثِيابِهِ سِرْبالًا أَبْيَض ، وعلى رَأْسِهِ قُبَّعة منْتَفخَةٌ تُشْبِهُ الْعمامَة .

فأَعْجَبَه هذا الْمَنْظر ، وَانْبَسَطَ له انْبِسَاطاً عَظِيماً ، كأَنما قد شَاهَدَ قِطْعَةً من بلادِهِ الْعَزيزة . ثم تَشَجَّعَ وَدَخَلَ ، فوجَدَ شابًّا أَسْمَرَ اللَّوْن فى سِنِّه ، جالِساً إلى مكْتَبٍ صَغير ، وأَمامه دَفْتَرٌ كَبير ، يَكْتُبُ فيهِ منَ الْيَمينِ إلى الشِّمال .

ورأَى مَنَاضِدَ مَرْصُوصَةً هُنا وَهُناكَ بِنظام جَميل ، عَلَيْها أَغْطِيةٌ بِيضٌ نَظِيفة ، يَجْلِسُ إِلَيْها جَماعاتٌ من وُجَهاءِ النَّاس يأْكُلُون ، وقد خَلَعَ كل مِنْهُمْ مِعْطَفهُ وَقُبَّعَتَه ، فعَلَّقَهُمَا على مِشْجَبٍ قريبٍ مِنَ الْمَائِدَة . وَعلى الْحيطانِ

MOHAMMAD OKEKO
ديك

مَرَايَا كَبيرةٌ مَصْقُولَة ، يَرَى النَّاظِرُ إلَيْهَا نَفْسَهُ مِنْ كُلِّ جانب ؛ وَوَجَدَ فى صَدْرِ المَطْعمِ صُورةً كَبيرة للنِّيلِ العَظِيم ، والمرَاكبِ الشراعيّة تَسْبَحُ فيه ، وصوَرُ الأهرامِ والآثارِ المِصْريَّةِ الخالدةَ .

ولمَّا انْتَهى سعدٌ من مُشاهَدَةِ الْمَطْعَم ، قامَ الشَّابُّ الأَسْمَرُ مِنْ مَكْتَبِه ، وَتَقَدَّمَ يَدْعُوهُ إلى الْجُلوسِ فى لُطْف ، ويُشيرُ لهُ إلى مائدةٍ خالِية . فخطَرَ لِسَعْد أَنَّهُ يَعْرِفُ هذا الْوَجْه ، وَأَنَّهُ رآهُ مِنْ قَبْلُ ، وَلكِنَّهُ لا يَتَذَكَّرُ أَيْنَ رآه .

وَنَسِيَ سَعْدٌ أَنَّهُ فى أُكْسفُورْد ، فانْطَلَقَ لِسَانه بِلُغَةِ بِلادِه ، يَطْلبُ طبَقاً مِنَ الفُول المُدَمَّس ؛ فابْتَسَمَ الشابّ ، وَأَحْنى رَأْسَهُ

عَلامةَ الطَّاعة ، ثُمَّ انْصَرَف ليُحْضرَ لهُ ما طَلَب .

وكانَ سَعدٌ مُشتاقاً إلى الفُولِ منْ زَمان ، لكنّهُ كانَ يَعْرِفُ القَوَاعدَ الصِّحيَّة ، فَلَمْ يملأْ بَطْنَه .

ولَمَّا فَرَغَ مِنَ الطَّعامِ ، أَدى الْحِسابَ وَهَمَّ أَنْ يَخْرُج ؛ فقالَ لهُ الشَّابُّ الأَسْمَرُ بِلَهْجَة عَرَبِيةٍ : « شَرَّفْتَنَا كَثيرًا يا سيِّدِى ! » فقالَ سَعْد : « شكرًا ! » فقال الشَّابّ : « أَكونُ مسرورا لو رأَيتُكَ ثانياً يا سيِّدى ! » فرَدَّ سعْد : « إنَّ ذلكَ يَسُرُّنى أَكثَر ! فهلْ تَسْمَحُ أَنْ نَتَقَابلَ يَوْمَ الأَحد ؟ » فأَجابَ الشَّاب :

«بل يَوْمَ الْجُمْعَةِ – إِنْ سَمَحْت – فَهُوَ الْيَوْم الذِى اخْتَرْتُهُ لراحَتى الْأُسْبُوعيَّة .» فواعَدَهُ سعدٌ على ذلك : ثمّ تَصَافَحَا وافترَقا .

* * *

وسارَ سعدٌ فى طريقه ، وهو مُتأثِّر بهذا الشابِّ ؛ وأَدْهَشَهُ كثيرًا ما رأَى من عادات لم يألَفْها إلَّا فى بِلادِه ، ومَرَّتْ فى خَيالِهِ صُورةُ الوطَنِ العزِيز ، فَتَذَكرَ أُمَّهُ وأَباهُ وإِخْوَتَه ، فَتَغَرْغَرَتْ عَيناه ، ولكنَّهُ تَصَبَّر وتَجلَّد ، وقال لنَفْسِه : «لا يَصِحُّ أَن أَبكىَ مِنَ الغُرْبة ، ولا أَنْ أَحْزنَ للْفراق ، فإِننى لم أَتَغَرَّبْ إِلَّا لِأَكونَ رَجُلًا مُتَعَلِّماً ، وَاسعِ الْعَقل ، يَسْتطيعُ

أَن يَخدُمَ وَطَنَهُ ، بِعِلْمِهِ وحُسنِ تفكيرِه ، وكلُّ صَعْبٍ يَهُونُ فى سَبيل الوَطن ! »

ولما جاءَ يَوْمُ الْجُمعة ، ذَهبَ سعدٌ إلى النّادى ، الَّذِى اتَّفَقَ مَعَ الفوَّالِ على اللِّقاءِ فيه . وكان طولَ الطَّريقِ يَسْأَلُ نَفْسَه : « أَيْنَ رأَى هذا الشابّ ! » فقدْ كانَ وَاثقاً أَنهُ يعْرِفُهُ ، ولكنَّهُ لا يَتَذكر . ولمّا وَصَلَ إلى النَّادى وَجَدَهُ فى انْتظارِه ، فَحَيَّاهُ وسلَّم عَلَيه ، فَرَد الفَوال عَلَيْه تَحِيتهُ بأَحْسنَ مِنْها ، ثم جَلَسَا يَشْرَبانِ الشاى ، وهُما يَتَحَدثان :

فقالَ الفَوَّال : « أَشكركَ كَثيرًا يا سَيِّدى ، على اهْتمامِك بِدَعْوتى ، وحُضورِك مقَابَلتى ! » ،

فأَجابَ سَعد : «إِنَّنِى سعيدٌ بهذا اللِّقاءِ ، وَأَنا مُنذُ رأَيتُك ، أَشْعُرُ بميْلٍ شَديد نَحْوَك ، وحُبٍّ يدْفَعُنى إِلى لِقائِك ! » فقالَ الفَوّال : «هذا ما أَشْعُرُ به نَحْوَكَ يا سَيِّدى ! » ، ثمّ ابتَسَمَ وقال : «يُخَيَّلُ إِلىّ أَنَّكَ قَدِمْتَ إِلى بلادِ الإِنْجليزِ منْ زَمَنٍ قَرِيب . »

فقالَ سعد : «نَعَمْ يا أَخِى ، جِئْتُ من زَمَنٍ قَريب ، ولذلِكَ أَشْعُرُ باضْطِرابِ أَحْوالى ، لأَنى لم أَتَعَوَّدِ الْغُربة قَبل الآن ! » .

فقالَ الْفَوّال : «فكَيْفَ تَرَكْتَ مِصْر ؟ إِنَّنى مُشْتَاقٌ أَشَدَّ الشَّوْقِ إِلى مَعْرِفَةِ أَخبارِ بلادِى ! » ، فَدَهِشَ سَعْدٌ وَقال : «أَنْتَ

ديك

مِصرِىّ ؟ » فابتَسَمَ الْفوّالُ وَقال : «نعمْ أَنا مِصْرِىٌّ يا أَخى ، وَلى فى مِصْرَ أَهْلٌ وَأَصْدقاء ، أَحِنُّ إِليْهِمْ ، وَأَشْتاقُ إِلى لقائِهِم » .

فقالَ سعد : « آه يا صَديقى ! لا تَذْكُر الشّوْقَ وَالْحَنين ؛ فإِنَّ شَوقى إِلى بلادى وأَهلى ، يكادُ يَحْرمُنى لذَّةَ الحياة ! » فَهَزَّ الْفَوّالُ رأْسهُ وقال : « أَنت تَشْتاق إِلى بلادِكَ وَما تَركْتَها إِلَّا منْذُ أَيَّام ؟ فكيْفَ بى أَنا وَقَدْ فارقْتُها منْ سِنين ! » فقالَ سعد : «منْ سِنين ..!؟ فما الَّذِى رَماكَ فى هذهِ الْغُرْبة ! » فأَطْرَق الفوّالُ بُرْهَةً ثم قال : « آه يا صَدِيقى الْعَزيز ! لقد ذكَّرْتَنى أَيَّاماً سُودًا ، ذقْتُ فيها مَرارَة

الْعَيْش ، وصنُوفَ الْعَذاب ، حتى أَدْرَكَتْنى رحْمَةَ اللهِ فى هذا الْبَلد ! » .

فأَدْرَكَ سعدٌ أَنَّ فى صَدْرِ صاحِبهِ سِرًّا يَطْوِيه ، فَبدا عَلَيهِ الاهْتمام ، وأَنْصَتَ إِلَيْه . وأَخَذ الْفَوَّالُ يَتَحَدَّثُ بِقِصَّتِهِ فَقال :

« لما حَصَلْتُ على الشَّهادةِ الثَّانويَّة ، منَ الْمَدْرَسةِ العبَّاسيَّةِ بالإِسكَنْدرية ، كنْتُ مشتاقًا إِلى أَنْ أَلْتَحِقَ بجامِعَةِ القاهِرةِ ، لِأُتَمِّمَ بها دِراستى العالية ، و لأَنَّ لى صَديقاً عزيزًا هناك ، كنتُ أَوَدُّ أَن أَلْقاه . ولكنَّ أَبى مات ، ولم يَتْرُكْ لَنا إلا قَليلًا من الْمَعَاش ، لأَنَّهُ كان موظفاً فى الْحُكومة ، وكنَّا متعوِّدِينَ الرَّخاء ،

فلم يَكْفِنا الْمِقْدارُ الْقَليل ، الَّذِى أَصْبَحْنا نَقْبضُهُ منَ الْمَعاشِ كلَّ شَهْر . فَفكَّرْتُ فى الْبَحْثِ عن عَمَل ، أَكْتَسبُ منْهُ ما يُساعِدُنى على الْعَيشِ ، وَطَرَحْتُ من بالى فِكْرَةَ الالْتحاقِ بالجامعة ، لأَنِّى لا أَملِكُ نَفقَةَ التعليم فيها.

وسعَيْتُ حتى وجَدْتُ عَمَلًا فى بَعضِ الدَّواوينِ بالإِسكَنْدَرِية ،ففَرِحْتُ فَرَحاً شديدًا ، وأَقبَلتُ على عملى بِهمَّةٍ ونشاط ، فَغار منِّى بَعْضُ زُملائى ، وصارُوا يُفْسِدون بَيْنى وبينَ رئيسى ، ويشوِّهُونَ سُمْعتى عِنْدَه ، ويَنقلُونَ له عنِّى أَخْبارًا كاذِبة ، حتّى امتلأَ قلبُه بكراهَتى .

« وكان رَجُلًا ضَيِّقَ العَقْل، غَليظَ القلب ، فصارَ يُضَايِقُنى ويضْطهدُنى : كلما عملتُ عملًا عَيَّبهُ ، وكلَّما رأيتُ رأْياً خَطَّأَه ؛ فإذا ناقشتُهُ غَضِبَ وهاج ، وانضمَّ إلى جانبِهِ زُملائى ؛ فيأْخُذونَ فى لوْمى وَتَعْنيفى ، وَيُهَدِّدُونَنى بِقَطعِ الْعَيْش ، إن لم أَعتَذرْ إلى الرّئيس ، فكنْتُ أَحْتَمِلُ كلَّ ذلكَ ، رغبَة فى أَنْ أَعيش.

« ولكنِّى بمُرُورِ الأَيَّام تَضَايقت ، وَشَعرت أَن الوظيفَة ذُلّ ، وأَنَّ الموظَّفَ عَبْدٌ ذَليل ، عَلَيْهِ أَنْ يُطيع كلَّ أَمْر ، فإذا خالَفَ طُردَ منْ وظيفَتِه. وأَدركتُ أَنى كنتُ مُخطئاً حِينَ فَرِحْتُ بالوَظيفَة ، وأَنَّنى بِعتُ حُرِّيَّتى بهذِه الْجُنيْهات ، التى

أَقبِضُها فى كل شهر ، فاستَقَلتُ منْ وظيفَتى ، منْ غَيْرِ أَن أُفكِّرَ فى مُسْتقْبلى .

« وكانَ معى نُقودٌ قَليلة ، أَخذْتُ أَصْرِفُ منْها شيْئاً فشيْئاً ، حتى لم يَبْقَ معى إِلَّا بِضْعة قُروش . وتمزَّقتْ ثِيابى ، وطالتْ لِحْيتى ، وعَلا الْغُبارُ طَرْبوشى ، وصار كلُّ مَنْ رآنى يَحْتقرُنى ، لِسُوءِ حالى ، وقذَارَةِ منْظَرى ، فركِبَنى الْهَمُّ والْغَمّ ، وضاقَ تفكيرى ، وصِرْتُ حيْران لا أَستَقرُّ فى مكان ! ولكنَّنى لم أَجْزَعْ ، لِأَنِّى كنْتُ أَعْتَقِدُ أَنَّ بَعْدَ الضِّيقِ فَرَجاً ، وأَنَّ الَّذِى خلقَنى وتكَفَّلَ برزقى لَنْ يَنسَانى ! »

* * *

فتأثَّرَ سعدٌ من كلامِ صاحبهِ وقال: وكيْفَ استَطعْتَ أَن تأْتَىَ إلى هنا ياصَديقى؟ »فقالَ الْفَوَّال: «صَبْرَكَ يا أَخى ، حتى تَسْمَعَ قِصَّتى كلَّها :

«خرجْتُ مَرَّةً إلى الْمِينا لأُفَرِّجَ عن نفسى بمنْظر البَحْر ، فَوجَدْتُ باخرةً كبيرةً عازمةً على الرَّحيلِ ، ورأَيتُ رُبَّانها يتَمَشّى على الرَّصِيف ، فَتَقَدَّمتُ إليْهِ أَشكو سُوءَ حالى ، وَرجَوْته أَنْ يُلحِقَنى بِعَمل فى السَّفينَة ، وكانَ رَجُلًا طَيِّبَ الْقَلب ، فَرَقَّ لى ، وأَجابَ طَلَبى ، وكانَ شُغْلى هُناكَ أَن أَنْقل الْفَحْمَ منَ المخْزَن ، لأُطْعِمَ فُرْنَ البَاخِرة ، وكنْتُ أَتناوَلُ أُجْرتى فأَدَّخِرُها ، وآكلُ ما يَفْضُلُ من مَوائِدِ المَسافرين ، حِرْصاً

عَلَى المَال ، بَعْدَ ما ذُقتُ أَلم الجُوعِ والفَقْر .

«وصارَتِ البَاخِرةُ تَسِيرُ بنا من قُطْر إلى قُطْر : مِن إنجلترَا إلى الهنْد ، ومن الهنْد إلى إنجِلْترا ، تَنْقُلُ البَضَائعَ وَالمسافرين ، فَشَاهَدْتُ كثيرًا مِنَ الموانى والبلاد ، التى كنَّا نَحْفَظُ أَسْمَاءَها فى المدرسة : شَاهَدْتُ بُمْبَاى ، وعَدَن ، والسُّويس ، وبورْسَعيد ، وَمَرْسِلْيَا ، وَجَبَلَ طَارِق ، وَغَيرها ، وصرْتُ أَحفَظُ أَسمَاءَها ، كما كنْتُ أَحْفَظُ أَسْماءَ الدكاكين ، التى كانَتْ فى شارِعِنا بالْإِسكَنْدَرِية .

«وكانتِ البَاخِرةُ تَمُرُّ على ميناءِ الإِسْكندرِيَّة ، فى الذَّهابِ وفى الإِياب ؛ فأَحِنُّ إلى وَطنى وأَهلى ،

ديك

وأَشْتَاقُ إلى رُؤْية أَقاربى وأَصْحابى ؛ فأَنزِلُ إليْهِمْ ، وأَقضى بَينَهُمْ ساعات ، ثُمّ أَعودُ مُسْرِعاً إلى الباخِرة ، لِئَلاَّ تترُكنى وَتسَافر ، فأَخْسرَ وَظيفَتى الَّتى مِنْهَا أَعيش . وَاسْتمْررْتُ فى شُغلى بالباخرةِ سَنةً كامِلة ، وَفَّرْتُ مِن أُجْرتى فى أَثنائِها مَبْلَغاً كبيرًا ، كنتُ أَحْتَفظ بهِ وأَحْرِصُ عليه ، فلا أَنامُ كلّ لَيْلَة حتَّى أَعُدَّهُ وأَتَحَسَّسهُ فى جيْبى .

« وفى مَرَّةٍ من المرَّات ، رَسَتْ بِنا الباخِرةُ على ميناءِ « لِيفرْبول » ، فأَردْتُ أَن أَتَنزَّهَ فى بِلادِ الإنجليز ، وَأَستَريحَ أَياماً مِنَ العَناءِ الذى قاسيْتُه ؛ فَطَلبتُ منَ الرُّبَّانِ أَن يمْنَحَنى

إجازَة ، إلى أَن تَعُودَ البَاخِرَةُ فى رِحْلَتِها المقبِلَة ؛ فلمَّا أَذِنَ لى الرُّبَّان ، نَزَلْتُ إلى الْبرّ ، وصِرْتُ أَتَنَقلُ من بلَدٍ إلى بَلَدٍ ، حتَّى وَصَلْتُ إلى مدينَةِ «أُكْسفورد» ، وفيها أَدْركَتنى عِنايةُ اللهِ ورحَمتُه .

«وَلَمَّا وَصَلْتُ إلى هذهِ الْمَدينة ، نَزَلْتُ فى مَثْوًى (بَنْسِيُون) ، تديرُهُ امْرأَة عَجُوز ، فاسْتأْجَرْتُ حُجْرة فى السَّرَب (البَدْرُوم) ، لِمُدَّةِ أُسْبوع ؛ وكنْتُ أَخْرُجُ كلَّ يومٍ للتَّنَزُّه ، ثمَّ آوِى إلى حُجْرتى فى الْمَساء .

«وكانَ فى جِوارِ الْمَثوى عَلَّاف ، يَبيعُ التِّبْنَ وَالْفولَ لِأَصْحَابِ الْأَحْصِنَة ، فاشْتَرَيتُ

مِنْهُ حَفْنَة مِنَ الْفُول ، ودَمَّسْتهَا على طرِيقَةِ بِلَادِنا ؛ لأَنى كنتُ مُشْتاقاً إِلى الفُولِ المدمَّس ؛ ثم دَعَوْتُ جَارى الْعَلَّافَ لِيأْكُلَ معى ، منْ هذَا الطَّعامِ المصرِىّ اللَّذيذ ، فاستَلَذَّ العَلَّافُ طَعْمَ الفُول ، وَعَادَ يترَجَّانى أُدَمِّسَ له أَكلةً ثانية ، وحدَّث صاحِبَةَ المثْوَى وبقِيَّةَ السُّكان ، عن لذَاذَةِ الفُولِ الْمُدَمَّس ، فجاءُوا يَرْجُونَنى أَنْ أَصْنَع لهمْ منْ هذا الفول .

« وَاشْتَهرَ أَمْرِى وأَمْرُ المدمَّس فيما بيْنهمْ ، فتهَافَتُوا عَلَىَّ ، يَطلبُون منِّى أَنْ أُدَمِّس لَهُمْ مقْدارًا فى كلِّ صَبَاحٍ ، يُفْطِرُونَ عَلَيهِ . وَلَمْ أَكُنْ أَظنُّ أَنَّ الإِنجليز ، سيُحِبُّونَ الفُولَ كلّ

هذا الْحُبّ ، فلمّا عَرفتُ ذَلكَ مِنهمْ ، لَقيتُهَا فُرْصَةً سانِحة لِكَسْبِ المال ، وأَيقنتُ أَنَّ اللهَ قد فَتَحَ لى بابَ الرِّزْق ، فَجَعلتُ تدْميسَ الفول صِناعَتى ، وصِرْتُ أُجَهِّزُ كلّ يوْمٍ لِسكَّانِ المثْوَى فَطُورَهُمْ منه ، وأَطلبُ منهم ثمناً غالياً ، فَيَدْفعون وهُمْ مَسْرُورون .

«وَامتدَّت شُهْرتى فى الشَّارع ، فكَثُرَ زبائنى ، وصاروا يَزيدون يوْماً بَعْدَ يوم ؛ فَوَجدْتُ من حُسْن الرّأْى أَلا أُضَيِّعَ هذهِ الفرْصَة ، فاستَعفَيْتُ رُبانَ الباخرةِ من عملى فى السفينة ، ثم فتحْت دكاناً قَرِيباً مِنَ المثْوَى . ولما اتَّسَعتْ أَعمالى ، وذاعَ صيتى ،

رأيتُ أن أنتقِلَ مِنَ الدُّكانِ الصَّغير ، إلى هذا المطعَمِ الفاخر الّذى رَأَيْتَه ؛ فكثُرَ ربْحى ، وزادَ مالى ، فَسَكنْتُ بيْتاً جَمِيلًا فى حىٍّ عامر ، وفرشتُهُ فَرْشاً لائقاً ، وكتَبتُ إلى أَهلى بالإسكَندَرِية ، أَن يُرْسلوا إلَىَّ زَوْجَتى ووَلدِى .

« هَلْ لكَ يا أَخى ، أَنْ تُشَرِّفَ منْزلى فى هذه اللَّيْلَة ، فَتَرَى بِعَيْنِكَ كَيْفَ استَطاعَ أَخُوكَ ، أَنْ يُنْشِىءَ بَيْتاً مِصْرِيًّا فى بِلادِ الإنجليز؟ »

* * *

فلَمْ يَتَرَدَّدْ سَعْدٌ فى إجابَتِهِ إلى ما طَلَب ، وقامَ فَصَحِبَهُ إلى الْبيْت ؛ فَلَمَّا وَصَلا إلى هُناك ، فَتَحَ البَابَ خادِمٌ عَلَى رَأْسِهِ طَرْبُوش ؛ ودَخَلَ

سَعْد، فَوَجَدَ البَيْتَ مَفْرُوشاً على الطِّرازِ الْمِصْرِىّ ، فى نِظامٍ جَميل ، ومَنْظَرٍ حسَن ؛ فابْتَسَمَ وأَظْهَرَ سُرُورَهُ وإعْجَابَه . ورَحَّبَ بِه الفَوالُ أَحْسَنَ تَرْحيب ، وحَيَّاهُ أَجْمَلَ تَحيَّة ، وطافَ به حُجُراتِ الْمَنْزِلِ واحِدةً واحِدة ، وما يُرِيهِ مِنْ حُجْرَةٍ إلَّا هِى أَحْسَنُ مِنْ أُخْتها .

ولمّا جَلَسا فى حُجْرَةِ الضُّيُوف ، قالَ الفوَّال :

« هَلْ أَعْجَبَكَ بيتى يا صَديقى ؟ إنَّ كلَّ ما فِيهِ مصرىّ ، وإنَّى هُنَا أَعيشُ عِيشَةً مِصْرِيَّةً خالِصَةً ؛ فَلا تَحسبَنَّ يا صَديقى ، أَنى نَسِيتُ وَطنِى فى بِلادِ الْغُرْبَة ، وَلكنى نقَلْتُ إلى

إنْجلْترا قِطْعةً مِنْ مِصْر ! فَهُنَا بَيْتِي الْمِصْرِى ، وهُنَا زَوْجَتِى الْمِصْرِيَّة ؛ وبَعْدَ قَليل يَعُودُ وَلَدِى « أَحمد » ، فَيُعْجِبُكَ زِيُّهُ الْمِصْرِىّ ، ولسانُهُ العَرَبِىّ ؛ وأُولَئِكَ العُمَّال الَّذِينَ رَأَيتهُمْ هُنَاكَ فى الْمَطْعَم ، مِصْرِيُّونَ جَمِيعاً ، اِسْتقْدَمْتُهُمْ إِلَىَّ لمَّا اتَّسَعَتْ أَعْمالِى ، وراجَتْ صِنَاعَتِى ، فَهُمْ يُساعِدُونَنِى فى إِخْلاصٍ وأَمانَة ؛ ونَحْنُ جَميعاً هُنَا شَعْبٌ مِصْرِىٌّ صَغير ! »

* * *

وكانَ سَعْدٌ يَسْمَع هذا الكلام ، وهُوَ مُعْجَب بِهِمَّةِ هذا الشابِّ ، الذِى اسْتَطاع بِجِدِّهِ وَصَبْرِهِ أَنْ يَصِلَ إِلى مَرْتَبةِ الأَغْنِياء ، مِنْ عَمَلٍ صَغير

كَهَذا ؛ فَقالَ له : « إِنَّنى مَسْرورٌ كُل السُّرُورِ يا أَخى لِنَجاحِكَ فى عَمِلك ؛ وإِنِّى أُهَنئُك مِنْ صمِيمِ قَلْبى بِهَذا الْحَظِّ السَّعيد ! »

فقالَ الْفَوالُ : « إِنَّنى أَشْكُرُ الله كثيرًا ؛ فَقَدْ كَتَبَ لِىَ التَّوفيق ، حتّى اسْتطَعْتُ أَن أَجْمَعَ مِنْ هذا العَمَل الْحُر ، ثَرْوَةً كَبيرة ، ولو بَقيتُ مُوظَّفاً كما كُنْت ، لَما قَدَرْتُ أَنْ أَجْمعَ بَعْضَ هَذِه الثَّرْوَة . لكن لا تَحْسِبْ ياصَدِيقى أَنَّ الْحَظَّ وحْدَهُ هُوَ الَّذِى يُسْعِدُ الإِنْسَان ؛ فَكلُّ واحِدٍ يَسْتَطيع أَنْ يَكُونَ سَعيدًا إِذا جَدَّ واجْتَهد ، وَصَبَر على التَّعَبِ والْمَشَقَّة ؛ ولكِنَّ أَكثَرَ الشُّبَّانِ فى بلادِنَا لايُحِبُّونَ أَن يَتْعَبُوا ، ويَكرَهُون

الْمُخاطَرَةَ فى الْحَياة ، وفراقَ الأَهْلِ والأَصدِقاء! »

فَهز سَعْدٌ رَأْسَهُ وقال : «نَعَمْ ، هذا صَحيح ياصَدِيقى ، إن أَكْثَرَنَا يُحِبُّ الوَظِيفَة ، وَيفِرُّ مِنَ العَملِ الْحُرِّ ! »

* * *

وبَيْنَما هُما فى الْحدِيث ، دَخلَ طِفْلٌ ظَرِيف ، يَدْرُجُ فى ثِيابِهِ القَصِيرة ، وطَرْبُوشِهِ الأَحْمَر . فلمّا وَقَعَ نظَرُهُ على الضيْف ، رَفَعَ يَدَهُ بِالتَّحِية وقالَ بِلِسانٍ أَلْثَغ : «السَّلامُ عَلَيْكُمْ » ؛ فأَجابَهُ سعْدٌ مُبْتَسِماً وقَدْ عَرَفَه : «وَعلَيْكَ السَّلامُ يا أَحمد ، ورحْمَةُ اللهِ وبَرَكاتُه! » فَتقدّمَ نَحْوَهُ أَحمد ، ومَدَّ يَدَهُ

إِلَيْهِ ، فَصافَحَه مُصَافَحةَ الرجُل .

فقالَ أَبوه : «هذا عَمُّكَ يا أَحمدُ ، قادِمٌ من مِصْر» . فقال أَحمد : «مَرْحَباً بِكَ يا عَمِّى ، وأَهْلًا وسَهْلًا ! إِنَّنِى أُحِبُّ مِصْر ، وأُحِبُّ كُلَّ قادمٍ من مِصْر ! يا لَيْتَنِى أَراها !! إِنّ أَبِى يُحَدِّثُنى بأَنها وطَنى العَزِيز ؛ ويَقولُ لى : إِنَّها أَحْسَنُ بِلادِ الدُّنيا ، وأَجْمَلُها وأَغْناها ! ! لا شَكَّ أَنَّكَ تُحِبُّها يا عمِّى كَثِيرًا ، فإِنَّ أَبى وأُمِّى يُحِبانِها أَكثَرَ مِنْ كُلِّ شَىْءٍ ! »

فَتأَثَّرَ سعْدٌ بِهذا الكلامِ اللَّطِيف ، وضَمَّ أَحْمَدَ إِلى صَدْرِهِ وقبلَه ، وقالَ لهُ : «إِنَّنا جَمِيعاً نُحِبُّ مِصْرَ يا أَحمد ، وإِنَّ كَلامَكَ

الْحلْوَ قد أَثَّرَ فى نَفْسِى ، وجَعَلَنى أُحِبُّك ، وأُحِبُّ مِصْر أَكْثَرَ مِمَّا كُنْتُ أُحِبُّها ! » فَقالَ أَحمد : « وأَنا أُحبُّك يا عَمى كثيرًا ، وأُرِيدُ أَن أُقَدِّمَ إِليكَ هَدِيَّة ، تَذْكُرُنى بها إِذا رَجَعْتَ إِلى مِصر ! » .

فَقالَ لهُ أَبوه : « ماذا تُرِيدُ أَن تُهْدِى إِلى عَمِّك ؟ » فَقالَ أَحْمَد : « أُرِيدُ أَن أُهدىَ إِلَيْهِ ورْدَةً جَمِيلَة ، قَطَفْتُها مِنَ الْحَدِيقة ! » فَضَحِكَ أَبُوهُ وقالَ : « إِنَّ الورْدَةَ ، يا أَحمد ، لاتَصْلُحُ أَنْتَكُونَ تَذْكارا دائماً ، لِأَنَّها تَذْبُلُ سَرِيعاً ».

فارْتَبَكَ أَحمدُ وخَجِل ، ثم قال : « لكِنْ ... لا بُدَّ أَن أُقَدِّمَ إِلى عمى هَدِيَّة ! »

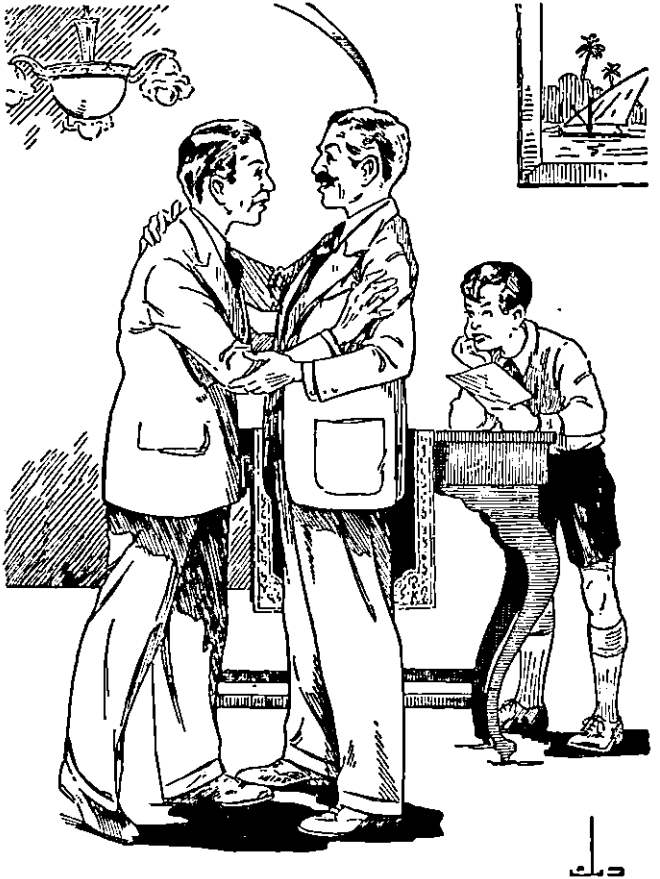

ديك

فَقال أَبوه : « إِذَنْ فاذْهَبْ إِلى حُجْرَةِ الْمَكتَب ، وهاتِ الصُّورةَ الصَّغيرة الَّتى على مَكْتَبى ، وقدِّمها هَدِيَّة إِلى عمِّك » .

فَجَرَى أَحمدُ إِلى حُجْرَةِ الْمَكْتَب ، وأَتَى بالصُّورةِ وقَدَّمَها إِلَيْه ؛ فَلَمَّا رآها سَعْدٌ دَهِشَ واسْتعْجَب ، وقال : « ماذا أَرى ! هذه صُورَتى وصورةُ صَديقى لطفى ، ونَحْن تلميذان بالْمَدْرَسةِ الثَّانَوِيَّة ! » .

فأَجابُه الفوَّالُ مُبْتسِماً : « نَعَمْ يا سعد ، فأَنا لطفى صديقُك ! » فقامَ سعدٌ عنْ كُرْسِيِّهِ مَدْهوشاً وقال : لقدْ غيَّرتْكَ الأَيامُ كثيرًا يا صديقى ! »

ثم تَعانَقَ الصَّديقانِ طويلًا ، ووَقَفَ أَحمدُ يَنْظُرُ إِلَيْهما ويَسْتَعْجِب ، وعلى شَفَتَيْه ابْتِسَامَةُ الدَّهْشَةِ والسُّرورِ مِمَّا يَرَى .

رقم الإيداع	١٩٩٣/٧١٤٠
الترقيم الدولى	ISBN 977-02-4168-7

٧/٩٣/٢٠
طبع بمطابع دار المعارف (ج.م.ع.)